ابو تمام

للاستاذ انيس المقدسي

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

— ٢ —

قال الباقلاني بعد أن ذكر بضعة امثال على تصنع ابي تمام « فهذا وما اشبهه انما يحدث من غلوه في الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب وربما اسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه واستوخم رصفه وكان التكلف بارداً والتصرف جامداً[1] » والذي يطالع ديوانه تحريباً لهذه التهم يتضح له ان اكثر ما ذكروه حق وان ابا تمام كثيراً ما يأتي بالاستعارة او الكناية دون ان يراعي التناسب بين الحقيقة والمجاز كقوله:

وركب يسابقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كف قاطب

يقصد بذلك أن المسافرين يشاركون ركائبهم في السير الشديد الذي لالين فيه ولا تؤدة. فاستعار السير الشديد للخمر التي لم تمزج بماء وجعل تشارك الركب والركائب فيه عبارة عن تسابقهم تلك الخمر العرف. وانت لاتحتاج إلى تأمل كثير لترى شدة التعسف في هذه الاستعارة ومثل ذلك قوله: ضاحي المحيا للهجير وللقنا تحت العجاج تخاله محراثا

فالشطر الأول جميل جعل الممدوح من ذوي الاقدام والتعرض للشاق، لكنه اخفق في الشطر الثاني إذ جعله محراثاً يشق غبار الحرب وأفسد جمال البيت. وقوله

آثرني إذ جعلتهُ سنداً كل امرىء لاجيء إلى سنده

ايثار ثرثار القوي رأى جمد المعروف اولى بالنضب من جمده

والشاهد في البيت الثاني وهو يريد أن يقول آثرني ايثار القوي وقد غار للمعروف وقام يناصره فتأمل استعارته الجمد للمعروف. وايثار القوي له بالتطبيب. وقوله

لعمري لقد حزّت يوم لقيته لو ان القضاء وحده لم يبرّد

وانك لتشعر بقشعريرة البرد في هذا البيت. وهو يقصد ان يقول ان حيّتك قد ثارت يوم لقيت العدو وكدت تفتك به لولا ان القضاء حال دون ذلك فكدّ نفسه حتى جاء بالطباق ولكنه جاء غثّاً بارداً. وانظر الى تعسفه اذ يقول

نوى كانقضاض النجم كانت نتيجةً من الهزل يوماً ان هزل النوى جد

---

(١) اعجاز القرآن ٥٣

اي ان النوى فاجأته مفاجأة فلم يصدق اولاً ولكن ألم وقوعها اراه الحقيقة وعلمهُ ان هزل الحبيب جد . وقوله

فكأن افئدة النوى مصدوعة حتى تصدع بالفراق فؤادي
فاذا فضضت من الليالي فرجة غالقتها فسددتها ببعاد

ومعناها ان فؤاد النوى بقي مصدوعاً حتى صدع بفراق الاحبة فكلما فتحت لنفسي منفرجاً غالفتني الايام فسدّت ذلك المنفرج بالبعاد . فانظر كيف تكلف تصديع افئدة النوى وكيف استعمل البعاد كحجر يسدّ به ثغرة الفرج . وقوله

اهيس اليس لجّة الى همم تغرّق الاسد في آذيّها الليسا

انظر الى هذه الهمم التي ترى الاسود غرقى في غمارها وكل ما يريد ان يقوله ان الممدوح شجاع همته تفوق همة الاسود الشديدة . وقوله

هدأت على تأميل احمد همتي وأطاف تقليدي به وقياسي

معناه رأيت الناس يسعون الى الممدوح فقلدتهم ووجدته بالقياس افضلهم فهدأت همتي المضطربة عنده . قابل هذا المعنى بما استعاره له من هدوء الهمة وطواف التقليد والقياس فترى شدة اسرافه في الصناعة . ومثل ذلك قوله

لو لم تفتّ من المجد مذ زمن بالجود والبأس كان المجد قد خرفا

ومعناه ان المجد قد هرم ولولا ان ارجعت اليه فتوته بجودك وبأسك لكان قد ادركه الخرف ومن الاسراف الممقوت قوله

فلويت بالمعروف اعناق الورى وحطمت بالانجاز ظهر الموعد
قرّت بقرّان عين الدين وانشرت بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

قال العسكري وهذا مع غثاثة لفظه وسوء التجنيس فيه يشتمل على عيب آخر وهو ان انشتار العين لا يوجب الاصطلام . واليك هذه الابيات يصف سفينة حملته الى الممدوح وانظر كيف يتعسف في تشبيهها بالجمال وكيف يخرج به التكلف عن حدود الجمال

حملتْ رجاي اليك بنت حديقة غلباء لم تلقح لفحل مقرف
فنجت وقد حوت الهنيدة وابتنت في شطرها وتبوعت في النيف

في البيت الاول يريد بابنة الحديقة الغلباء السفينة لانها تصنع من خشب الحديقة وشبه الماء بالفحل ولم يلقحها اي لم يصبها عطر . فتأمل هذه المهاجة الصناعية . وفي البيت الثاني — اسرعت هذه السفينة وهي بنت مئة ولكنها في نشاط الحسين وسارت غايتها في بحر كالصحراء الى ان يقول : فاعتامها ذو خبرة بفحولها ندس بحيلة خلقها متلطف

اي فاختارها فحول من الشجر خبير حاذق ببنائها

ثم اجتنت شفوي فصرت جنينها متمكناً بقرار بطن مُسدف

اي ثم حملتني فكنت في بطنها كما يكون الجنين في بطن امه

واني ارجع القارىء الى هذه القصيدة ليراجعها ويحكم بنفسه على هذه المجازات . وامثال ذلك كثير في شعر ابي تمام فانك لا تكاد تقرأ له قصيدة حتى تمر ببيت او بضعة ابيات من هذا الشعر المكدود الذي ينفر منه الذوق السليم لما فيه من تكلف الصناعة والاهتمام بالقشور دون اللباب

نقشه المصوّر

على ان لابي تمام مع كل اسرافه في الشعر الصناعي مكانة عالية في الشعر العربي وما ذلك الا لدقة تصوره وحسن اختراعه في شعره كثير من الصور البليغة التي تشهد له بجودة الخيال وبعد مرامي النظر . والذي يراجع ديوانه بروية ويعتبر على تحليل معانيه يجد من بدائعه الشعرية ما يشغفه . ويراد بالبدائع الشعرية ما لطف من وصف أو مجاز أو حكمة أو لبس لباساً قشيباً من البلاغة واليك امثلة ذلك من شعره

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وجودة البيتين في جمال الصورة التي نرى فيها الحسود ناشراً فضل المحسود وفي التمثيل على ذلك من العالم الطبيعي تمثيلاً يوضحها ويقررها في الذهن . وقد قرن كل ذلك برقة العبارة وجودة الالفاظ . ومثل ذلك قوله متقرباً من امير اقام الحجاب على بابه وهو في غاية البلاغة

ليس الحجاب بمقصر عنك لي املاً ان السماء ترجّى حين تحتجب

وقوله يصف عدم اجتماع المال والكرم في شخصه

لا تكثري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

ومن اجل صوره الشعرية قولهُ يرثي ولدين صغيرين لاحد الامراء والبلاغة ناطقة فيه

طفي على تلك الشواهد منهما لو امهلت حتى تكون شمائلا

لغدا سكوتهما حجى وصباهما حلماً وتلك الاريحية نائلا

ان الهلال اذا رأيت نموه ايقنت ان سيصير بدراً كاملا

وهذا البيت الاخير الذي اتى به تمثيلاً لما كان يرجى من ذينك الولدين هو من ابدع الامثال وابلغها . ومثله بلاغة وجمالاً قوله المشهور يصف بلوغ الاريب عن سبيل للمشقات

ولكنني لم احو وفراً مجمّعاً فنلت به الا بشمل مبدّد

ولم تعطني الايام يوماً مسكناً الذّ به الا بيوم مشرّد

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وقد اجاد في هذه الابيات كل الاجادة وابرز هذه المعاني البديعة بقالب يأخذ بمجامع القلوب . ومن حسن اختراعه قوله يصف مشيبه الباكر

ستٌّ وعشرون تدعوني فتبعها الى المشيب فلم تظلم ولم تحُب
فاصغري ان شيباً لاح بي حدثاً واكبري انني في المهد لم اشب

يعذر المشيب ويقول ليس الغريب انني شبت في السادسة والعشرين ولكن الغريب انني لم اشب وانا طفل يشير بذلك الى ما في نفسه من عزم وهمة والى ما اصابهُ منذ طفولته من مقارعة الاهوال والخطوب وقال يصف كرم الممدوح وازدحام الشعراء على بابه

ولو كان يفنى الشعر افناه ما قرت حياضك منهُ في القصور الذواهب
ولكنهُ صوب العقول اذا انجلت سحائب منهُ اعقبت بسحائب

والصور الشعرية في البيت الثاني خلابة لاحكام التشبيه وجمال التركيب ومن هذه الصور الخلابة قوله من مرثاته المشهورة

وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه اليهِ الحفاظ المرُّ والخلق الوعرُ
ونفس تخاف العار حتى كانما هو الكفر يوم الروع اودونه الكفر
فاثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت اخصمك الحشر

وقوله يصف اميراً انعم الله عليه بنعم عظيمة ولكنهُ كفرها ونقض عهد الولاء والوفاء

كم نعمة لله كانت عنده فكأنها في غربة واسار
كسيت مصائب لومه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء في الاطمار

وقد شهد البلغاء لابي تمام بالتقدم في ذلك. قال ابن الاثير في كلامه عن المعاني التي تستخرج من غير شاهد الحال «ان لابكارها مرًّا لايهجم على مكامنه الا جنان الشهم ولا يفوز بمحاسنه الا من دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم » ثم يقول « قد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني وقد عددت معانيه المبتدعة (اي التي لم يسبق اليها) فوجدت ما يزيد عن عشرين معنى واهل هذه الصناعة يكبرون ذلك وما هذا من مثل ابي تمام بكبير »[1] وقد اصاب الاستاذ ضومط اذ قال — « الحق يقال ان ابا تمام هو كما قال فيهِ واصفوه شاعر واسع الخيال دقيق التصور بعيد مرامي النظر واقدر انهُ لو عاش فوق الاربعين ولم يمنعهُ الانهماك في الشهوات من ترتيب محفوظاته ومدركاته بل عاد عليها بالتهذيب والتشذيب فاطرح منها ما حقهُ ان يطرح وابقى منها ما هو جدير بالبقاء ثم جمع الاشباه والنظائر — لو عاش حتى فعل كل ذلك لكان شعره بعدها لا يتعلق به متعلق ولبذّ على الارجح الشعراء قاطبة حتى ابا

(١) المثل السائر ١٦٣

الطيب المتنبي في كثير من حكمه وامثاله وبُعد مطارح نظره »[1]

وكما اننا ننعى على ابي تمام ميله الى تكلف البديع فمدحه لنا نجد في شعره من تفنن عال في النظم يؤثر في النفس فيحملها الى الطبقات العليا . اقرأ ايًّا شئت من عيون قصائده وانظر الى تلك الهزة التي تعتريك لقراءتها فاذا حللتها وجدتها مزيجاً من جمال النظم ومتانة التركيب وسمو الفكر وسنجتزىء هنا بمثلين أو ثلاثة

راجع قصيدته المشهورة في فتح عمورية وتأمل مقدمتها — تلك الوقفة الشعرية العالية التي يرينا فيها الشاعر « المذنب الغربي » ويسمعنا احاديث الجمهور عنه ثم يستخلص من كل ذلك تمهيداً ساحراً للتوصل الى الممدوح ووصف الواقعة العظيمة التي فتح فيها حصون الاعداء كل ذلك باسلوب شديد الاسر بديع الخيال يملأ الاسماع ويحرك اوتار القلوب . واذا استثنيت بعض ما ذكرناه من تصنعه فان معظم القصيدة من هذا النمط العالي . استمع يصف فشل قائد الروم ومحاولته اغراء المنتصرين بالمال وترفع الخليفة عن ذلك —

لما رأى لحرب رأي العين توفلس ... والحرب مشتقة المعنى من الحرَب
غدا يصرّف بالاموال جريتها ... فعزه البحر ذو التيار والحدب
هيهات زعزعت الارض الوقور به ... عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المربي بكثرته ... على الحصا وبه فقر الى الذهب
ان الاسود اسود الغاب همتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

الى ان يقول: خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال الاّ على جسر من التعب

ومن هذا النمط العالي قوله

لا يطرد الهمّ الاّ الهمّ من رجل ... متقلقل لبنات القفرة الشُّعُب
ستصبح العيس في ذا الليل عند فتى ... كثير ذكر الرضى في ساعة الغضب
صدقت عنه فلم تصدف مودته ... عني وعاوده ظني ولم يخب
كالغيث ان جئته وافاك ريقهُ ... وان ترحلت عنه لجّ في الطلب
كأنما هو في اخلاقه ابداً ... وان ثوى وحده في جحفل لجب

وقوله : ويوم امام الموت دحض وقفته ... ولو خرّ فيه الدين لانهال كانيه
جلوت به وجه الخليفة واتقا ... قد اتسعت بين الضلوع مذاهبه
فلو نطقت حرب لقالت عقلة ... ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه

فانت ترى في كل ذلك نزعته الفنية الشديدة . ولو قلبت ديوانه لوجدتها في اكثر شعره

(١) مجلة الكلية ج ٥

وهذه النزعة وما فيها من عنف وشدة اسر هي التي حدت بمريديه الى التغالي بمدحه وعدّه امام هذه الصناعة . حتى قال ابو الفرج الاصفهاني « وفي عصرنا هذا (القرن الرابع الهجري) من تعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف »[1] بل هي التي دفعت ابا دلف العجلي ان يصيح وقد انشده ابو تمام قصيدته التي مطلعها

على مثلها من اربع وملاعب اذيلت مصونات الدموع السوافك

يا معشر ربيعة . ما مدحتم قط بمثل هذا الشعر فما عندكم لقائله؟ فبادروه بعطارفهم يرمون بها اليه . فقال ابو دلف قد قبلها منكم واعاركم لبسها . ومأثوب عنكم في ثوابه . ثم امر له بخمسين الف درهم . وقال والله ما هي بازاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا[2] ولم يكن مجرد اهتزاز للمديح ولكن الرجل تأثر بنفس الشاعر وجلال اسلوبه . ونلحظ ذلك في مجلس عبد الله بن طاهر أمير خراسان فانهُ لما قصده وانشده قصيدته « اهن عوادي يوسف وصواحبه » لم يتمالك الشعراء الحاضرون من ان يصيحوا ما يستحق هذا الشعر غير الامير حفظهُ الله . وبلغ التأثر باحدهم ان قال لي عند الامير اعزهُ الله جائزة وعدتي بها وقد جعلتها لهذا الرجل جزاء على قوله للامير[3] ومثل ذلك ما جاء في الاغاني عن محمد بن سعد كاتب الحسن بن رجاء ان ابا تمام مدح الحسن بلاميته التي يقول فيها

أنا من عرفت فان عرفتك جهالة فانا المقيم قيامة العذّال

فلما وصل الى قوله

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي
وتنظري حيث الركاب ينصّها عجبي التقريض الى ممات المال

صاح الممدوح متأثراً والله لا اقتضها الاّ وأنا قائم . فلما انتهى من انشادها عانقه . قال محمد بن سعد وأخذ منهُ على يدي عشرة آلاف درهم واخذ غير ذلك مما لم اعلم به على بخل كان في الحسن بن رجاء[4]

ولا شك ان في شعر شاعرنا روعة خاصة فهو يجمع بين الفخامة اللفظية وجزالة المعنى جمعاً يهزّ النفس ويفعل بها ما فعل بمعاصره ومناوئه دعبل يوم سمع بعضهم ينشد بيتي ابي تمام

شهدت لقد اقوت مغانيكم بعدي وعفّت كما عفت وشائع من برد
وانجدتم من بعد اتهام داركم فيا دمع انجدني على ساكني نجد

فتأثر دعبل على كرهه لابي تمام وصاح احسن والله وجعل يردّد « فيا دمع انجدني على ساكني نجد[5] ». ولولا كثرة تصنعه وما سنذكره له من التعقيد والاغراب لأحلّته هذه الروعة الفنية أعلى محل في الشعر العربي

(١) ،(٢)و(٣) الاغاني ١٠ — ١٠٠ و ١٠٣ (٤) الاغاني ١٠ — ١٠٤ (٥) الاغاني ١٠ — ١٠٧

شغف بالاغراب

« يذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع منهُ من التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً . يأتي للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة[1] » ذلك رأي ابن رشيق القيرواني فيهِ وقد اصاب كل الاصابة ولا سيما في قوله « يأتي للأشياء من بعد »

ويراد بذلك هيامه بالغريب من المعاني التي يحتاج في تفهمها الى تأمل ومشقة . تراه يغطي مقاصده بشيء من الابهام فاذا كشفته بان لك جمال خلاب يشهيك الى مراجعتها ويزيدك ترنحاً بها . ومن هنا هذه الصعوبة التي يعانيها من يطالع ديوانه فانه قد يقف حائراً امام طلاسمه وغموض معانيه حتى اذا راضت له بالدرس والتفكر رأى فيها ما يلذّه من صور جميلة ومعان رشيقة . وقد وصف الشاعر قصائده بقوله

فكأنما هي في السماع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب
وغرائب تأتيك الا انها لسميك الحسن الجميل اقارب

تقبل على شعره فتصدمك وعورته فتحاول التغلب عليها وتكدُّ نفسك في تذليل عقباتها ولكنك لا تلبث ان تشعر بتعب قد يحملك على النكوص . على انك اذا صبرت وتابعت الشاعر في اساليبه وغرائبه واخذت تجلو لنفسك معانيه حمدت عاقبة هذا العمل وشعرت بما يشهيك من بديع تخيلاته وجزالة ألفاظه . ولأضرب لك بعض الامثلة على ذلك . قال من مطلع قصيدة يمدح عبدالله بن طاهر

اهن عوادي يوسف وصواحبه فعزماً فقدماً ادرك السؤل طالبه
اعاذلتي ما اخشن الليل مركباً واخشن منه في الملمات راكبه
دعيني على اخلاقي الصم التي هي الوفر أو سربٌ تزنُّ نوادبه
فان الحسام الهندواني انما خشونته ما لم تقلّل مضاربه

ذكروا انه لما بدأ في انشاد هذه القصيدة في مجلس الامير قيل له لم تقول ما لا يفهم. فاجاب السائل لم لا تفهم ما يقال. نكتة بارعة ولكنها تبين ما نقصده اليه . ومعنى هذه الابيات عموماً: هل تريد القوافي ان تشغلني وتثني عزيمتي عن السفر وان تخدعني كما حاولت ان تخدع يوسف ابن يعقوب . فلا تذرع بالعزم . لابد لكل طالب مواتب من ادراك طلبه . ويا أيتها العاذلة . ان الليل مركب خشن ولكن الذي يركبه اشد منه ولخشن فاركبني على اخلاقي الشديدة اسعى في طلب العلى فاما ان انالها او اموت وتندبني النوادب . فان الحسام الهندواني القاطع انما خشونته (عدم مضائه) ما لم تستعمل اي انما مضاء الرجل بالعمل والاقدام

(١) العمدة ١ — ٨٥

وقوله يصف امانيّ الروم واعتمادهم على مناعة حصونهم

وقال ذو امرهم لا مرتع صدد للسارحين وليس الورد من كثب
ان الحمامين من بيض ومن سمر دلوا الحياتين من ماء ومن عشب

اي قال قادتهم لانفسهم لا مرتع قريب للاعداء (اذ راموا الحصار) ولا ماء فلا يمكنهم البقاء طويلا . على ان امانيهم هذه قد فشلت لان السيوف والرماح (الحمامين) هي سبيلنا الى الماء والعشب . وقوله يصف كيد الممدوح للاعداء وحسن رأيه

قد رأوه وهو القريب بعيداً ورأوه وهو البعيد قريبا
لكن الكيد فيهم ان من اعظم إرب ان لا تكون اريبا
مكرهم عندهم فصيح وان عم خاطبوا مكره رأوه جليا
لقد انصعت والشتاء له وجـ ـه يراه الرجال جهماً قطوبا
طاعناً منحر الشمال متيحاً لبلاد العدو موتاً جنوبا
فضربت الشتاء في اخدعيه ضربةً غادرته قوداً ركوبا

اي ان الاعداء رأوا الممدوح على قربه منهم بعيداً بمناعته. ورأوه على بعده قريباً منهم لعزمه وهجومه الشديد . وقد خفيت سياسته عليهم — وان من اعظم فنون السياسة ان لا يظهر الدهاء للاعداء — فلم يدركوا خططه مع ان خططهم كانت لديه واضحة . ولقد عنت اليهم والشتاء في ابانه فطعنت منحر الشمال (يكني بذلك عن العدو لانه من جهة الشمال) حاملاً اليهم الموت من الجنوب وضربت الشتاء فأذللته حتى اصبح لديك كالجمل الركوب، ومن هذا القبيل:

يقولون ان الليث ليث خفيّة نواجذه مطرورة وبخالبه
وما الليث كل الليث الا ابن عشرة يعيش فواقاً ناقة وهو راهبه

ويُحمَل هذا الطلسم بقولنا ليس الاسد سبع الغاب ولكن الاسد الحقيقي هو الذي يحتمل يأس الممدوح ولو قليلاً (فواق ناقة) . وقوله للعاذل الخليّ وهو بين الطلول

وما صار في ذا اليوم عذلك كله عدوّي حتى صار جهلك صاحبي
وما بك اركابي من الرشد مركباً ألا انما حاولت رشد الركائب

لم يصر عذلك عدواً لي حتى صار جهلك صاحبي اي كرهتك لعذلك اياي ولكني ما لبثت ان رضيت عنك لجهلك لوعة الحب اذ انت بجهلك تستطيع مساعدتي فتمنعني مثلاً من شدة الوجد وكثرة البكاء . ولكن مالك تحملني على اتباع سبل الرشاد وترك الوقوف بين الطلول ليس ذلك رشادي بل رشاد ركائبي التي ترغب في متابعة السير

ومن اسباب اغرابه وغموضه شغفه الزائد بالطباق والجناس كقوله :

فالشمس طالعة من ذا وقد افلت والشمس واجبة في ذا ولم تجب

* * *

غربت خلائقه واغرب شاعر فيه فاحسن مغرب في مغرب

ومن طلاسمه في ذلك قوله —

وركب يسوقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كف قاطب
فقد اكلوا منها الغوارب بالسرى وصارت لها اشباحهم كالغوارب
يصرّف مسراها جديل مشارق اذا آبه همٌّ عذيقُ مغارب
يرى بالكعاب الرّود طلعةَ ثائر وبالعرس الوجناء غرة آيب

ومعناها — ورب ركب شاركوا نياقهم بالسير الشديد حتى اذابوا اسنمتها وكواهلها ويقود هؤلاء الركب رجل خبير بالاسفار شرقاً وغرباً شغوف بالسفر على النياق حتى انه ليرى في وجه الناقة جمالاً ويكره المكوث في المنازل فلا يرى في وجوه الحسان ما يغريه بذلك

ومن دواعي غموضه اغراقه في استعمال الغريب من الالفاظ . جاء في كتاب الصناعتين — «كان ابو تمام يتتبع وحشي الكلام ويتعمد ادخاله في شعره» .[1] ولعل ذلك راجع بالاكثر الى كثرة محفوظه ودرسه لاشعار الاقدمين. قال الآمدي «كان ابو تمام مشغوفاً بالشعر مشغولاً مدة عمره بتخيره ودراسته وله كتب اختيارات فيه مشهورة . منها الاختيار القبائلي الاكبر وقد مرّ على يدي هذا الاختيار ومنها اختيار آخر رجمته القبائل ومنها الاختيار الذي تلقّط فيه محاسن شعر الجاهلية والاسلام واخذ من كل قصيدة شيئاً حتى انتهى الى ابرهيم بن هرمة وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء التحول ومنها اختيار تلقط فيه اشياء من الشعراء المقلين والشعراء المغمورين ويلقب بالحماسة وهو اشهر اختياراته ومنها اختيارات المقطعات يذكر فيه اشعار المشهورين وغيرهم والمتقدمين والمتأخرين وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر وانهُ اشتغل به وجعل وكده واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه فانه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث الا قرأه واطلع عليه» [2]. وقيل انه كان يحفظ اربع عشرة الف ارجوزة غير القصائد والمقاطيع وقال هو عن نفسه لم انظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال[3]. ولا ريب ان للحفظ أثراً في اسلوب الشاعر أو الناثر ولا سيما في ابّان قوة الحافظة . ويظهر ذلك في ميل شاعرنا الى استعمال غير المألوف من الاوصاف والعبارات . انظر الى هذا البيت

اهيس اليس لجّاء الى همم تغرّق الاسد في آذيّها الليسا

اي شجاع تغرق بحور همته الاسود الجريئة وقوله

الواردين حياض الموت مُتأقةً ثباتُباً وكراديساً كراديسا

ويريد بمتأقة مترعة . وثباتُباً اي جماعات جماعات . وقوله وهو مطلع قصيدة

اما انه لولا الهوى ومعاهده مواعيسه قد اقفرت واجالده

(١) الصناعتين ٢٦١ (٢) الموازنة ٢٣ (بتصرف) (٣) ابن خلكان ١ — ١٧٠

لاعطيت هذا النبل مني طاعة ليعلم دهري اني قرن يكايده

اي لولا ان نأي الاحباب عن الديار قد افقدني صبري لعضت الدهر بنابي على مصائبه اي رجل انا

وقوله : غل المروءة الصحاصح عزمه بالعيس ان قصدت وان لم تقصد

اي طوى السهول والقفار عزمه : وقوله

تقلق بي أدم المهاري وشؤمها على كل نشز متلئبٍ وفدغد

اي تضطرب بي النياق الرمادية والسوداء على كل فلاة سوداء الحجارة . وفي قوله

صَهْصَلق في الصهيل تحسبهُ أشرج حلقومه على جرس

يصف حصانه بشدة الصوت حتى كأنما حلقومه شدَّ الى جرس . ومن هذا القبيل

كأن بابك بالذين بعدهم ثوىً اقام خلاف الحيّ او وتد

بكل منعرج من فارس بطل جناجنٌ فُلق فيها فنا قصد

والمعنى كأنَّ بابك وقد فني جيشه أثر ثوي او وتد باق في الحي — فأنت لا ترى الاَّ اشلاء جيشه مبعثرة . وفي كل ناحية وكل منعطف آثار الرماح المتكسرة

واختم هذه الامثلة [المتعلقة — عندنا بعض هذه الامثلة لضيق المقام] على ميله لاستعمال المتوعر من الالفاظ ببيتين من همزيته المعروفة . قال في مطلعها

قدك اتئب اربيت في الغلواء كم تعذلون وانتم سجراني

اي استح يا لائمي يكفيك غلواً في تعنيفي . وكيف تلومونني وانتم مثلي مصابون بالغرام ومنها بصف البيد والنياق

بيد لفل الصيد في اصليدها ما ارتيد من هَيد ومن شُدَواه

اي قفار قطعتها على نياق ذلول فيها كل مايتطلبه الراكب من عزم ومضاء ومن تفريج للهموم وامثال هذه الالفاظ في شعر ابي تمام كثيرة فاشية . وقد انكر المتقدمون الاقدمون ذلك عليه وقالوا اذا جاز للاعرابي القح فهو مستهجن من المحدث الذي ليس هو لغته ولا من كلامه الذي تجري عادته به . [1] ولقد ذكرنا ان اكثر ذلك راجع الى شغفه بالقديم وكثرة محفوظه منهُ . على ان هناك سبباً آخر وهو شدة اعجابه بشعره حتى لم يكن ليرضى ان يمسه بأدنى تهذيب . قال ابو هلال العسكري كان ابو تمام يرضى بأول خاطر فنعي عليه عيب كثير . وعن الاغاني — روي عن بعض الشعراء ان ابا تمام انشده قصيدة له احسن في جميعها الاَّ في بيت واحد فقال له يا ابا تمام لو القيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب . فقال له أنا والله اعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل اولاده . فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو في نفسه [2] . فكان شاعرنا كما وصفه الامدي شرهاً الى ايراد كل ما جاش به خاطره ولجلجة فكره خلط الجيد بالرديء والعين النادر بالرذل الساقط والصواب بالخطإ [3]

(١) الموازنة ١٢١ (٢) الاغاني ١٥ — ١٠٠ (٣) الموازنة ٥٦